أفكار متقاطعة

صيرورة العالم بين ماضٍ وحاضر ومستقبل (3)

دوران احتضاريّ تتصادم فيه قوى الحياة وقوى الموت

■ جورج كعدي

يعيش عالمنا أزمة على كلّ صعيد. وإذ نقول أزمة فمعنى ذلك أنّ ملامح اللايقين تكبر، كذلك الغموض. وإن استطاع الأنبياء التنبّؤ، أو «رأى» العرّافون ما هو آتٍ، لم يبق في وسع الدارسين والمحلّلين والراصدين تكوين رؤية (أو رؤيا) جليّة، ولم يعد في إمكان المتكهّنين التكهّن. الحاضر في طور الهلاك، وكوكبنا الأرضيّ يحيا، يترنّح، يتدحرج، والمستقبل يمّحي. فقد عالمنا التطوّر الخطّي المتتابع والمستقيم، وما عادت صيرورته «مبرمجة» مسبقاً. ظننّا بشراً أنّ التطوّر هو تنمية وتقدّم، بيد أنّنا اكتشفنا أنّ هذا التطوّر ينطوي على تخلّف وتقهقر على المستوى الإنسانيّ. هكذا ألفينا أنفسنا في عالم يبدو لنا في الوقت عينه في تطوّر، وثورة، وتقدّم، وتتقهقر، وأزمة، وخطر…

لا وجود لخلاص تاريخيّ (لم يعدْ غوته إلاّ بالخلاص الفرديّ). منذ خمسين ألف سنة توزّع الإنسان العاقل (Homo Sapiens) على القارّات واستمرّ تكاثر شتاته. إلاّ أنّ الإتنيّات سجنت نفسها في لغتها وثقافتها ومعتقدها. كانت الحضارات تتواصل تدريجيّاً في ما بينها، لكنّ التباعد الكبير بين القارّات باعد بين المجموعات الإنسانيّة الموجودة في أميركا وأفريقيا وآسيا وأوروبا، بل مكثت إمبراطوريّات وحضارات في حالة جهل بعضها لبعضها الآخر رغم امتدادها على قارّات شاسعة. كانت ثمّة «تواريخ» متعدّدة، متفاوتة زمنيّاً، ولم يكن هناك تاريخ واحد.

يعتقد المفكّر الفرنسيّ إدغار موران، في أحد تجلّياته الفكريّة المشعّة، أنّ الإنسانيّة لم تبدأ في الظهور، تدريجيّاً وعلى نحو ضبابيّ، عبر التواصل المتبادل والتفاعل بين قارّة وأخرى، إلاّ بعد اكتشاف أميركا. ظهر «العصر الكوكبيّ» كما يسمّيه في القرن التاسع عشر، لحظة انتشار التقنية والسلاح، واكتساح الإمبرياليّات الغربيّة الكرة الأرضيّة. وفي القرن العشرين مزّقت الحربان العالميّتان العالم ووحّدتاه في آن واحد. أضحت الإنسانيّة قدراً مشتركاً لا فكرة مثاليّة فحسب. هذه الإنسانيّة التي تشكّلت من جرّاء حربين عالميتين، غدت منذ هيروشيما مجتمع الحياة أو الموت. عاشت الإنسانيّة موتها الكمونيّ قبل أن تتمكّن من الخروج إلى الوجود. التهديد بالإبادة منحها قوّة التوالد وحوّل الفكرة المجرّدة إلى واقع ملموس مغلّف ببُعد كونيّ بتنا واعين وجوده بفضل العالم البيئيّ المتعلّق بالمحيط الحيويّ وبمجموع التنظيم الاقتصاديّ. والمغامرة الفضائيّة هي أكثر من مغامرة روسيّة أو أميركيّة. إنّها مغامرة إنسانيّة.

سهلٌ، مبدئيّاً ومثاليّاً، أن تتآلف الإنسانيّة وأن تشكّل وحدة من غير إلغاء التنوّع. كلّ جهاز عضويّ في جسمنا البشريّ يشكّل «جمهوريّة» من ثلاثين مليار خليّة، فلمَ لا تتمكّن «فدراليّة» مكوّنة من بضع أمم وستّة إلى سبعة مليارات «كائن عاقل» من تنظيم ذاتها؟ فالخطر القاتل الذي يتهدّد مجموع الإنسانيّة والمترتّب على صدام الإمبراطوريّات والقوى يدفع إلى تصوّر فدراليّة إنسانيّة تتضمّن الدول ـ الأمّة، تحترم أصالة تلك الدول وخصوصيّاتها، تجرّدها من قواها التامّة، تكبحها وتضبطها. إنّها أزمة الإنسانيّة التي لا تستطيع التأسيس لإنسانيّتها، وأزمة العالم الذي لم يستطع بعد أن يصير عالماً، وأزمة الإنسان نفسه الذي ما زال عاجزاً عن التحقّق كإنسان.

نحن نعيش في عصر ما قبل تاريخ الروح الإنسانيّة، عصر الأزمات، الصخب والهيجان، التقدّم والتقهقر. الدول ـ الأمم هي اليوم عبارة عن وحوش مصابة بهذيان عُصابيّ، إذ تعتبرُ كلّ قريب بمثابة عدوّ مسبق، وكلّ فرد من رعَاياها بمثابة متّهم. هي وحوش يواجه بعضها البعض الآخر مثل ديناصورات وزواحف مجنّحة، في هيجان دمويّ مجنون متصاعد، ولا تعترف بأيّ قانون يعلو إرادتها الوحشيّة، والمعاهدات التي تُبْرمها هي دوماً عبارة عن أوراق مهملة تمزّقها كلّ علاقة قويّة مستجدّة. أما الأفراد الذين يشكّلون الإنسانيّة فهم تابعون كاملاً لاندفاع تلك الوحوش وجنونها وقسوتها.

نحن في حالة من الدوران الاحتضاريّ الذي تتصادم فيه قوى الحياة وقوى الموت، وتسير القوى حاملة الموت أسرع من القوى حاملة الحياة. تبلور قوى الاستعباد (أميركا والغرب في طليعتها دوماً) وسائلها بسرعة أكبر، مقارنة بقوى التحرّر. تنتشر فكرة الثورة الضروريّة في العلاقات الإنسانيّة والاجتماعيّة والعالميّة، لكنّها ما برحت سجينة الثورة المضادّة التي تعمل، تحت قناع الثورة، على نشر إمبراطوريّتها وتقويتها. فهل تبقى قوى الاستعباد والفناء هي الأسرع؟ إذا كان الجواب بلى، نكون انطلقنا في سباق جهنّمي نحو الموت، ويصبح المستقبل فناءنا القريب. خطر الموت والفناء موجود في اقتران الدول فائقة القوّة وتعاونها، واقتران تقنيّات المناورة والاستعباد والإفناء والأساطير المجنونة (مثل أساطير «إسرائيل» الهرمجدّونيّة). الخطر كامن في تلاحم قوى الاستعباد (والاستعمار القديم الجديد) السياسيّ والتكنولوجيّ والإحيائيّ والمعلوماتيّ، وفي تدفق المسارات الديموغرافية والاقتصاديّة والبيئيّة.

يقول الطبيب والمفكّر الفرنسيّ هنري لابوري Laborit إنّ التقدّم لن يأتي من الغرب ولا من الشرق ولا من العالم الثالث، إنّما سيأتي من اللحظة التي يمسي فيها للإنسانيّة طابع كوكبيّ. بالتالي، يمكن القول في منطق متّصل إن الطابع الكوكبيّ الذي على الإنسانيّة أن تتميّز به سوف يأتي من الغرب، ومن الشرق، ومن العالم الثالث. سوف يأتي من كلّ جهة ومن لا مكان. سوف يأتي من النساء ومن الرجال، من الصغار ومن الكبار، من الشيوخ، ومن العمّال، ومن المثقّفين. سوف يأتي من وعي ضرورة وجود فكر جديد مركّب. إنّ عملية الخلق والتجديد كانت دوماً غير مرئيّة، وينبغي الرهان دوماً على اللامرئيّ… (يتبع).

إليكِ في وحشةِ الصَمت

■ عدنان كنفاني

هنا… في هذا المكان، بين هذه الجدران الوطيئة، وراء غبش النافذة المطلّة على بحيرات البؤس، وروائح الدماء، وضباب مجزرة، شريكتي السجينة فيه لوحة تعيسة لعجوز بقي وحيداً، يعزف لحن وداع، يباعد بين ناظريه الكليلين وبين أوتار كمانه العتيق، ويسرّب من بين أصابعه الراجفة أنّات حنين، ولوعَة فقد ما أدرك عتبات الأمنيات.

هُنا… على إفريزِ النافذة، وُريقات ريحان كثيفة وصغيرة جداً، تتنفّس بؤسها على عيدان رفيعة، نابتة من قلب تراب جافر ما ذاق طعم الندى، وتكتمُ روائحها عن فراشة تأتيها في كلّ صباح، تلاعب طيوفها من وراء الزجاج، وتلامس بجناحيها الزهريّين صمتها المصقول شفيفاً، جداراً يباعد بينها وبين أمل ما كفّ عن التوثّب.

أوراق صفراء منثورة بفوضى فوق الأثاث البالي، تحشو في تجاويفها ذاكرة خرفة، وتاريخاً عبثياً زاخراً بالنفاق والكذب، وكتباً تكتم أنفاسها على فيوض من تفاهات، وأشياءَ صغيرة وكبيرة مركونة على رفوفٍ خشبية لم تعد تنهَدُ بريقها الذي كان… ومروحة كسولة تلهث وراء غبارٍ لا يكفّ عن الصخب.

هنا… تحاصرني عناكب الكآبة، تسيّج حولي دوائرَ مجدولة بأشواك الصبّار، تباعد في كلّ يوم بيني وبين صخب الصارخين وراء أقفال الأبواب.

-افتح النافذة للشمس!

عن أيّ شمس تتحدثون؟ ومنذ متى كانت نوافذ البؤساء تَفتَحُ على خيوط الشمس؟

إنها تشرق في فضاءات أخرى… بعيدة، وغريبة عن طقوس عازف الكمان النبيل، وعني.

الفراشة تضرب بجناحيها الشفيفين زجاج النافذة، ووريقات الريحان تَنصَبُّ إليها شوقاً. حاولتُ أن أفتح ظلاً من شقوق النافذة، وجدتها قد تكلّست منذ زمن غارقٍ بالدهشة.

تضيء الشاشة، هذه المسكونة بي، تأتيني كلّما تلعثَمت حروفٌ مفردة على لساني بكثير من الشدو الموشّى بمواعيد برّاقة، تمسكُ بتلابيب قراري، أحسبه فيوض غناء، فيلامسني، وهو يزجي إليّ شدوه، برعب الآتي، تتسرّب تلك الفراشة حبيسة الضياء من أسفل الشاشة، تجرّ ذيل فستانها الأبيض الطويل، وتسكن حجرات قلبي.

-أتَوّجُكِ مليكة على فصول وحدتي.

أنتِ… أيتها السابحة إليّ بعنفوان الرضا الشاحب، أخيراً، ستكونين رفيقة عمري الباقي.

كانت مواكب الشحنات السوداء المعبّأة بتخاريف الكشوف التصويرية، وتهويمات الباحثين عن ثرائهم بين لفائف البائسين، تقذف من رئتيّ المتعبتين لواعج حبيبات حمراء.

قال ذلك الأفّاق وهو يلوي نظارته الرقيقة:

-رحلة قاربت على مستقرّ لها أخير!

الفراشة تداعب حروف الشاشة المضيئة، تلامس خافقي المتعب بصفاء ألوان معشّقة على طرفي جناحيها، تحوم كالقدر، فتغرقني في لجاجات الدائرة، دائرة شُغفتُ بها، ولكن هذا الصخب في صدري لا يزال يعلن الأفول!

تارة… أعيش صبوة دوراني في قلب الدائرة، يحاصرني محيطها المحفوف بألق الأمنيات، وترانيم الصبوة المباحة، بكثير من انشداد الودّ، وأوتار الكمان الملتصق بعنق العجوز تداعب حلماً كثيراً ما أقصيته عن عالمي، لكنه يضعني والفراشة في قلب دائرة لها مذاق السحر.

في أحايين أخرى كثيرة، لا أجيد غير التحويم بلا هدف، وبلا بوصلة، وبلا صعقة النشوة خارج الدائرة.

أرنو إلى شبح الشاشة، هذه الساكتة ضياء، لا شيء يأتي غير دوائر واهمة ليس لها أثر، تضيف إلى قفل يقيّدني، أقفالاً جديدة، تحمل مع صديدها الأحمر مسمّيات جديدة، ومفردات جديدة.

أسقطُ في متاهات ذاتي، ويعلنني الانتظار حليفاً صابراً أتقنت فنّ البقاء طويلاً أمام رجفات شاشة تعلن في كلّ لحظة جفافها.

وعندما يطلّ شبح وهم من وراء الزجاج البعيد، لا أجدها، بل أجدني أحوم حول الدائرة، أبحث عنها، أسمع قهقهات العجوز المتغضّن وراء كمانه العتيق.

تغادر الفراشة، لا أعرف إلى أين يمضي بها المسار، كأنني لم أكن ذلك البريق المكين.

ربّاه… ماذا أفعل؟

يصارعني الوقت، يعلن في كلّ ومضة أنه قارب على فتق رتوق الشرايين.

هل أغرق في الأحمر الموشوم بلسعات السواد المتمكّنة مني!؟

أصابع العجوز ترجف حثيثاً على نبض الأوتار، والفراشة تمارس فنّ الشدو، وأنا أغرق في لجّة ذاتي المطحونة بالوجع.

هل أخرج إلى فضاءات النور المتماهي وراء زجاج نافذتي؟

هل أطحن خفق جناحين ملوّنين بألوان القوس القديم يمارسان عليّ جنون الانتظار؟

هل، وهل، وهل…؟

وهل يمهلني الوقت لأصنع من ذاتي ذلك القرار، أم أتعلّق ذات يوم إلى جانب هذا العجوز، خشبة من دون أوتار، ونغماً صامتاً ليس له صدى.

أتحنّط وراء دائرة لم تعد لي، ولم أعد أطير في حومتها، وأبقى أطير حولها.

أطير وأطير إلى أن ينهكني بحث الكاشفين عن علّة هزالي، ثم… سريعاً أو بطيئاً تخنقني سطوة الدماء الطافحة.

يومذاك، تعود الفراشة تبحث من وراء الزجاج، عن قصفة ريحان معبّأة على أعواد وتريّة.

بينما يعلنُ الوقت البائس عن مجزرةٍ جديدة، وسياسات جديدة، وإفكٍ جديد!

«الوعي الأخلاقيّ ودوره في الإصلاح الدينيّ» بحثاً لمحمد برهومة

تأويل متشدّد يسوّغ اللاأخلاقيّ باسم الدين

صدر للكاتب الأردني محمد برهومة كتاب جديد لدى «مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية» تحت عنوان « الوعي الأخلاقي ودوره في الإصلاح الديني»، ويندرج ضمن السلسلة المحكّمة علمياً التي يصدرها المركز تحت عنوان «دراسات استراتيجية». يشتغل برهومة على فكرة أساسيّة مفادها أن فكرة الإصلاح الأخلاقي تمنع اصطدام الدين بالحرية أو تكبيل المعرفة. ويعتقد برهومة أنه لا يكتمل أي جهد أو مشروع للنهضة والتنوير والإصلاح الديني في المنطقة العربية والعالم الإسلامي، عامة، من دون الاشتغال على فكرة إصلاح المُثل والقيم الدينية، وتقديم جهود نظرية وفلسفية متماسكة علمياً تخصّ طبيعة العلاقة بين الدين والأخلاق، بناءً على أفكار وجهود متناثرة في التراث العربي والإسلامي بحثت هذه المسألة قديماً واستفاضت في مقاربة المسألة الأخلاقية، إنما لم يُصر إلى نقد تلك الأفكار والجهود وتفكيكها وتنظيمها وتطويرها وتأطيرها في سياق بلورة «علم أخلاق» في الحضارة العربية يتأسس على المشترك الإنساني العام. ويلفت برهومة النظر إلى أن ذلك كان متاحاً في القرون الذهبية من الحضارة الإسلامية، خاصة في الفترة بين القرنين الثاني والخامس الهجريين، لكن النكوص الحضاري الذي بدأ مع عصور الانحطاط حال دون بلورة هذا المشروع الحضاري الكبير.

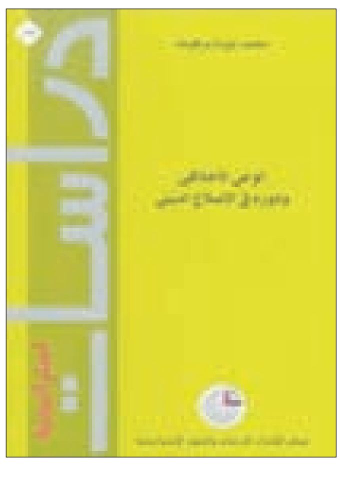

الأسئلة الأساسية التي تدور حولها دراسة برهومة تتركز في الاستفهام حول مدى أهمية التمايز بين دائرتي الأخلاق والدين، والدور الذي يؤدّيه الوعي الأخلاقي في مسألة الإصلاح الديني، معرجاً على هذه المسألة ومناقشاً العلاقة بين الطقوس والشعائر من ناحية، والأخلاق من ناحية أخرى، وصولاً إلى التساؤل حول أهمية إصلاح المُثُل والقيم الدينية كمدخل مهمّ، بحسب محمد برهومة، إلى تأسيس مداميك أساسية في مشروع التنوير والنهضة والإصلاح في العالمين العربي والإسلامي.

تصدر هذه الدراسة في زمن سياسي تكاد فيه تيارات السلفية الجهادية تختطف البعد الإنساني والأخلاقي والحضاري للإسلام، لذا تركّز الدراسة على القول إنّ تهميش موقع الأخلاق الإنسانية في حقلي العقيدة والشريعة يسوغ ما هو لاأخلاقي باسم الدين؛ اذ يتحوّل إلى إيديولوجيا، ويتم تأويل النصوص والتعاليم الدينية تأويلاً متشدداً يتصادم مع حاجات الناس ومصالحهم ومكتسباتهم الإنسانية والحقوقية مثلما قدمته وتقدمه تجارب الإسلام السياسي والسلفيات المتشددة في أكثر من بلد عربي أو إسلامي؛ إذ يكاد يضمُر في هذه التجارب البعد الأخلاقي والإنساني والحضاري في الإسلام.

يمكن القول إن هذه الدراسة تحاول التمعّن نقدياً في المثل والقيم الدينية وإصلاحها وإعادة هيكلتها ووضع الوعي الأخلاقي والمسألة الأخلاقية في سياقها التطبيقي الملائم، بتعريضها لاعتبارات الثقافة الحقوقية والحريات الخاصة والعامة، مثلما وردت في المواثيق الدولية والوعي الإنساني الذي استقر في زمننا لجهة مركزية الإنسان واستقلاله، وربط ذلك بمسألة السلطة والحكم وإدارة الشأن العام، وصولاً إلى تأسيس فكرة الإيمان على أنها علاقة طردية مع المعرفة الإنسانية والعلم والثقافة والحرية، وليست علاقة عكسية مع ذلك كله.

دفاتر هايدغر «السوداء» تكشف عنه أسراراً

كتب حسونة المصباحي (العرب أونلاين): صدر في كلّ من ألمانيا وفرنسا هذا العام (2014) كتاب «الدفاتر السّوداء» للفيلسوف مارتن هايدغر (1889–1976) مؤلف «الوجود والزمن» الذي لا يزال مرجعا أساسيّا في مجال الفلسفة المعاصرة، وإليه يعود جميع الفلاسفة من مختلف التيّارات.

شكّل صدور هذه الدفاتر حدثاً بارزاً لكونها وثيقة مهمّة جداً لرصد مسيرة فيلسوف كان ولا يزال ذا تأثير هائل في الفلسفة في العالم برمّته، كما كان له تأثير في فلاسفة ومفكرين كبار مثل هانّا آرندت وميشال فوكو وجان بول سارتر وليفيناس ومارلو بونتي وهربرت ماركوزه وهابرماس وجاك دريدا وآخرين.

تأثر مارتن هايدغر الذي ينتسب إلى عائلة كاثوليكيّة من «الغابة السوداء» في البداية بأستاذه إدموند هوسرل صاحب مذهب «الفينومينولوجيا» (الظاهراتيّة). لكنه تحرّر في العشرينات من القرن الماضي من هذا التأثير ليكتب مؤلفه «الوجود والزمن» الذي حقّق له شهرة عالميّة واسعة وأتاح له تبوُّء مكانة رفيعة في مجال الفلسفة. لذلك لم يتردّد طلابه، والمعجبون به في تلقيبه بـ«ملك الفلسفة المتوّج». وفي مطلع الثلاثينات من القرن الفائت، تحديداً عام 1933، قبل مارتن هايدغر اقتراح النازيين ليكون عميداً لجامعة فرايبورغ. ولم يكن يعبأ بالملاحقات التي كان يتعرض لها المثقفون والمفكرون والشعراء والكتاب الرافضون للنازيّة، ولا بالتهديدات التي كانت تطولهم، وتحرمهم من عملهم وتجبر كثراً منهم على الفرار إلى المنافي، إذ ألقى هايدغر خطاباً في حفل تنصيبه احتفى فيه بوصول النازيين إلى السلطة، ممجّداً الاشتراكية القوميّة ومعتبراً إيّاها «ثورة» قادرة على إنقاذ ألمانيا من الأزمات التي كانت تتخبّط فيها خلال تلك الفترة. وفي منشور وزّعه على الطلاب كتب يقول: «إن الفوهرر هو وحده الحقيقة والقانون في ألمانيا بالنسبة إلى الحاضر والمستقبل». لم يكن «منشقاً داخلياً» على ما يزعم أنصاره، ولا «نازياً نذلاً وشريراً» على ما يراه أعداؤه، بل كان فيلسوفاً مهتماً أساساً بنفسه.

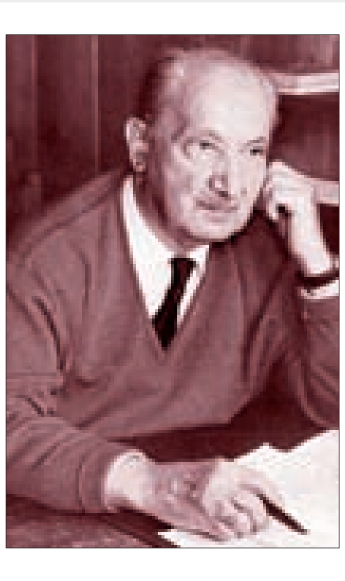

خلال سنوات الحرب، صمت هايدغر عن جرائم النازيّة، بل جمّد علاقته مع أستاذه إدموند هوسرل، وحذف الإهداء الذي خصّه به في كتابه «الوجود والزمن»، كما جمّد علاقته بصديقه كارل ياسبرس الذي كان تعرّف إليه في بيت هوسرل في فرايبورغ عام 1920.

بعد الحرب الكونيّة الثانية، تشكلت لجنة لمحاكمة هايدغر باعتباره «فيلسوفاً في خدمة النازيّة»، وفي التقرير الذي أرسله إلى اللجنة المذكورة، كتب كارل ياسبرس: «إن طريقته –يقصد هايدغر– في التفكير، التي تبدو لي دنيئة وخسيسة وديكتاتوريّة، خالية من أيّ اتّصال مع الآخر، ستكون اليوم ضارّة جداً في مجال التدريس. إنّ هذه الطريقة تبدو لي أهمّ من محتوى الأحكام السياسيّة الذي يمكن أن يتغيّر بسهولة. وطالما لم يمتلك هايدغر انبعاثاً أصيلاً، لا بدّ من أن يكون واضحاً وجليّاً في أعماله الفلسفيّة، فإنّ أستاذاً كهذا، بحسب اعتقادي، لا يمكن أن يكون على صلة بشبيبة اليوم التي تكاد تملك عناصر المقاومة الداخليّة».

رغم ذلك، قام بعض الفلاسفة والمفكرين، مثل اليهودية الألمانية هانّا آرندت التي كانت عشيقته «السريّة» أثناء دراستها الجامعية، وجان بول سارتر، وهربرت ماركوزه، وجان بوفيره بالدفاع عن هايدغر وغضّ الطرف عن الأخطاء السياسية التي ارتكبها في الفترة النازية.

في الحوار الذي أجرته معه الأسبوعية «دير شبيغل» عام 1970، ولم ينشر إلاّ عقب وفاته، دافع هايدغر عن مواقفه وأفكاره ونزّه نفسه من معاداة الساميّة، معتبراً أن المواقف التي اتخذها كانت تهدف إلى «إنقاذ ما ينبغي إنقاذه». وأقرّ بأنه كره العيش في المنفى لأنه مرتبط ارتباطاً روحيا باللغة الألمانيّة، وبـ«الغابة السوداء» التي يستوحي منها أفكاره، ولا يطيق الابتعاد عنها. لذلك رفض مغادرتها للتدريس في جامعة برلين.

تتضمّن «الدفاتر السوداء» الملاحظات والأفكار والآراء التي دأب هايدغر على تسجيلها في دفاتر ذات أغلفة من فرو الخلد الأسود بدءاً من عام 1930 إلى عام 1970، وفيها نشتمّ ما يمكن اعتباره «عداء للساميّة». فهو يعتبر اليهود مختلفين عن الألمان، ويرى أنهم يولدون ذوي موهبة وميل لـ«الحساب وحبّ المال وتكديسه». كما أنهم يتمتعون بقدرة فائقة على التلاعب وعلى إخفاء نواياهم الحقيقيّة والتستّر عليها،

وهم بعقليتهم التجاريّة يتجرّدون من سائر القيم الأخلاقيّة. وهم يكوّنون «لوبي» عالميّا أفقد الغرب القدرة على مواجهتهم، بل إنهم جرّوه إلى حروب دمويّة. غير أن الفرنسي بيتر تراوني المشرف على أعماله الكاملة يرى أن أفكار هايدغر عن اليهود كانت جانبيّة، وغير مختلفة عن الأفكار التي كانت رائجة حول اليهود في أوروبا على امتداد قرون طويلة، ويرى أن التركيز عليها يفقدنا الاهتمام بما هو أساسي وجوهري في فلسفته الوجودية التي كان يهدف من خلالها إلى إحياء القيم الإنسانية وبعث الحيوية في الثقافة الغربية المهدّدة بالضمور والذبول في عصر الصناعة والتكنولوجيا المتقدمة، و«التأمرك» المريع الذي انتشر انتشاراً واسعاً في المجتمعات الأوروبية، مشيعاً فيها السطحيّة والابتذال.

يمكن القول ونحن نتصفح «الدفاتر السوداء» إن هايدغر لم يكن «منشقّاً داخلياً» مثلما يزعم أنصاره، ولا «نازيّاً نذلاً وشرّيراً» مثلما يراه أعداؤه، بل كان فيلسوفاً مهتماً أساساً بنفسه، وبفكره الوجودي.

نسيبة الشاعر الإسبانيّ أنطونيو ماتشادو تتذكّر وتروي

لمناسبة عيد ميلادها التسعين، قررت ابنة شقيق الشاعر الإسباني الكبير أنطونيو ماتشادو الخروج على صمتها حول ما يتعلق بعمها، وتتكلم في حفلها الخاص، تاركة المساحة واسعة للنقاد ومؤرخي الأدب ليكتبوا عن تجربته الشعرية التي أثرت ليس في الشعر الإسباني فحسب، بل الشعر العالمي.

كان ماتشادو يكتب بلا توقف ويدخن حشائش الحقل لافتقاده التبغ، وكان الحزن يغطي وجهه. تقول السيدة العجوز: «ذات يوم مطلع حزيران عام 1936، فيما كانت العائلة مجتمعة إلى المائدة ككل يوم أحد، طلب أنطونيو إلى شقيقه الأكبر مانويل (شاعر أيضاً) ألا يسافر في إجازة على عادته سنوياً في التاريخ نفسه، وأن يبقى معهم في مدريد حيث انتشرت شائعات عن قرب قيام انقلاب عسكري يقوده الجنرال فرانكو، غير أنه لم يقنعه». وتضيف: «غادر مانويل وزوجته بعد عدة أيام لزيارة شقيقة لهما في بورجو، فيما مكثت بقية العائلة في مدريد حيث اندلعت حرب أدت بكثر إلى المنفى، وكان بينهم أنطونيو ماتشادو الذي مات في منفاه. ومنذ ذلك اليوم، لم يلتق الشقيقان الشاعران مرة أخرى، رغم أنهما كانا مثل الظفر واللحم، إلى أن غادر كلّ منهما هذا العالم». وكانت المائدة نفسها التي جمعت لقاءهما الأخير، تضم طفلة في الحادية عشرة بلغت هذا الشهر سن التسعين. طفلة كانت تنصت إليهما بعينين زرقاوين ولا تزال تحمل النظرة الطفلية نفسها. هذه الطفلة أضحت ذاكرة العائلة وحملت لقبها: ليونور ماتشادو، ابنة شقيق أنطونيو ومانويل، ابنة فرانثيسكو، الشقيق الخامس للإخوة ماتشادو، والشاهدة الأخيرة التي تعيش في إسبانيا– ثمة شقيقة أخرى تعيش في تشيلي– وتعرف تفاصيل العائلة الحميمة.

بلغت ليونور التسعين في أيلول الجاري، وكرّمت في كافتيريا مركزية في مدريد ضمن احتفال نظمته الشاعرة الشابة مارينا كاسادو، وحضرها الكثير من الشعراء والكتاب والناشرين ومدرّسي الأدب، اجتمعوا ليقرأوا أمامها أشعارهم الخاصة وأشعار الإخوة ماتشادو، أنطونيو ومانويل والثالث غير المعروف: فرانثيسكو، والد ليونور. واستمعت إليهم ليونور مبتسمة، معلقة بصوت خفيض، ونهضت في الختام لتلقي شعراً ولتشكر الحضور وتتذكر أباها وعمّيها، قائلة: «كنت أتمنى لو أرث حساسيتهم».

لم ينجب أنطونيو، ولا مانويل، وضمن كلّ منهما لنفسه الخلود من خلال أعماله، ومن خلال ست بنات لشقيقهما فرانثيسكو وخوسيه، لكن أنطونيو كان يتبنى ليونور تحديداً، وهو من منحها هذا الاسم تكريماً لليونو إيثكيردو، حب الشاعر العظيم، المراهقة التي تزوجها أنطونيو في مدينة سورية وماتت شابة عام 1912، وتروي ليونور أن «أنطونيو تذكرها في قصائد كثيرة، ومع ذلك لم يكن يتحدث عنها أمامنا. الكلام عنها كان يؤلمه كثيراً، وذاكرة العائلة التي امتلكت ناصية الشعر تجلس وتتذكر أيام الآحاد في البيت العائلي، وتتذكر السنوات السابقة على الحرب الأهلية. تقول:»كان الإخوة ماتشادو الخمسة يجتمعون في غرفة، وكنا نسمعهم يضحكون مثل الأطفال». وتتذكر ليونرو أنه لدى اندلاع الحرب في 1936 أرسلت سلطة الجمهورية أنطونيو ماتشادو إلى روكافورت(بالنثيا) لأجل حمايته، وطلب إليهم رؤية أمه وشقيقيه.

وفي عام 1938 انتقلوا إلى برشلونة ومنها إلى فرنسا، منفاه الأخير، حيث مات أنطونيو في شباط عام 1939، حاملاً قصائد في جيبه.

الخبر الثقافي

سورية تحتفل بموقعٍ إيبلا الأثري في خمسين عاما على اكتشافه

كتبت ميس العاني من دمشق (سانا): القيمة الأثرية والحضارية لموقع إيبلا الأثري كان العنوان الرئيسي للتظاهرة التي أقيمت في القاعة الشامية في المتحف الوطني بدمشق، احتفاء بمرور خمسين عاماً على اكتشاف هذا الموقع. وقال ماهز عازر معاون وزير الثقافة إن الاكتشاف الأثري لموقع إيبلا التاريخي سلط الضوء على أهمية الحضارة السورية القديمة ودورها وأثرها وتأثرها بالجوانب الاجتماعية والثقافية، مضيفا إن موقع إيبلا الأثري في إدلب تعرض لبعض الأضرار، لكن وعي الشعب السوري والمجتمع ساهم في خفض تلك الأضرار إلى حدودها الدنيا.

الدكتور مأمون عبد الكريم مدير عام المديرية العامة للآثار والمتاحف في كلمته عن قصة اكتشاف هذا الموقع الأثري المهم، إذ بدأ البروفيسور الإيطالي باولو ماتييه مكتشف الموقع عمله في تل مرديخ عام 1964 مع عددٍ من أساتذة وطلاب المعهد نفسه من دونٍ توقف، متوقعاً أن يجد حاضرة مهمة في هذا التل نظراً إلى حجمه الكبير وموقعه الاستراتيجي من دون وجود أي دليل على اسم التل أو من سكنه سوى جزء من حوض نذري منحوت بأشكال نافرة ظهر إلى سطح الأرض عن طريق المصادفة عام 1955. وأضاف عبد الكريم إن البعثة التي واصلت تنقيباتها حتى عام 1975 عثرت على نحو 17 ألف رقيم طيني، بعضها كامل وبعضها محطم، ضمن غرفة صغيرة في القصر الملكي العائد للألف الثالث قبل الميلاد، وكان هذا الكشف أكبر حدث في تاريخ الاكتشافات الأثرية لكونها الوثائق الكتابية الأولى في سورية في الألف الثالث قبل الميلاد. ورأى عبد الكريم أن المعلومات والوثائق التاريخية والكتابية التي قدمتها أعمال البروفيسور ماتييه على الأرض السورية في إيبلا قدمت الوجه الحضاري لهذه الأرض خلال الألف الثاني والثالث قبل الميلاد، وبدّل المعتقد التاريخي الخاطئ بأن سورية خلال هذا التاريخ كانت نقطة عبور أو تواصل أو صدام بين الحضارات الكبرى التي كانت معروفة آنذاك، كما بيّنت أن سورية كانت ذات طابع خاص ومتميز ومستقل في الأصالة والإبداع الفكري والحضاري.

تلاه الدكتور أحمد طرقجي مدير التنقيب والدراسات الأثرية في المديرية متطرّقاً في محاضرته تحت عنوان «بعثة التنقيب في تل مرديخ خلال خمسين عاماً» إلى أهمية الاكتشافات الأثرية التي حصلت في تلك المنطقة عن طريق البعثات، لافتاً إلى أن عمليات الكشف والتنقيب في إيبلا استمرت على نحو متواصل في شتى أرجاء الموقع، وكانت النتائج والدراسات مذهلة أسفرت عن اكتشاف الحي الملكي «الاكروبول» الذي يضم القصور الملكية الضخمة وبعض المعابد، وأهمها معبد عشتار المجدد في الألف الثاني قبل الميلاد، والمراكز الإدارية التابعة للقصر الملكي وأسوار المدينة الضخمة الترابية المكسوّة بالحجارة التي يبلغ سمكها عند القاعدة نحو 60 متراً.

عبر «السكايب» تحدث من إيطاليا البروفيسور ماتييه مكتشف الموقع الأثري، مشيراً إلى أهمية التنقيبات التي حدثت بين عامي 1964 و1975 حين عثر في حجرة من حجرات القصر الملكي العائد للألف الثالث قبل الميلاد على مكتبة ضخمة تضم السجلات الملكية مكوّنة من 16 ألف رقيم مسماري أو أكثر، بينها ألفا رقيم سليم وستة آلاف رقيم ناقص وثمانية آلاف كسرة. ويوضح ماتييه أن هذه الرقيمات قلبت المعادلة وأكدت بما لا يقبل الشك على أن سورية كانت في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد منطقة ثقل حضاري وفكري وثقافي واقتصادي وسياسي لا يقل مكانة عن سواه».

الدكتور أحمد ديب، مدير شؤون المتاحف، عرض لطقوس الدفن في إيبلا من خلال الرقم المسمارية عبر أشكال المدافن التي تتنوع بين المدافن الفردية التي كانت تقسم بين مدافن حجرة ومدافن جرة «مخصصة للأطفال» إضافة إلى مدافن جماعية ملكية، مشيراً إلى أن أرشيف إيبلا تضمن معلومات مهمة عن طقوس الدفن ووجود مدافن في المنطقة.

فيما تطرق عبد السلام ميداني، مدير تقانة المعلومات في المديرية العامة للآثار والمتاحف، الى مشروع التوثيق الإلكتروني للآثار السورية الذي بدأ بمشروع التوثيق الإلكتروني لدمشق القديمة عبر مسح ميداني للواقع الاقتصادي والاجتماعي والبيئي ومسح إنشائي للمدينة القديمة وعلاقتها بالجوار المباشر باستخدام تقنية الفوتوغرامتري لأهم ثلاثين موقعاً أثرياً في المدينة باستخدام محطة الرصد المتكاملة مع تصوير فوتوغرافي لرسم الواجهات والمقاطع والمساقط وربطها مع بيئة نظام المعلومات الجغرافي، فضلاً عن إنجاز تصميم وبناء نظام معلومات جغرافي أثري متكامل لإدارة المواقع الأثرية. ولفت إلى أن المديرية انتقلت بعد هذه المرحلة إلى مرحلة أخرى بنت من خلالها قاعدة بيانات مركزية للمتاحف السورية والمواقع الأثرية للحصول على معلومات كاملة حولها.

الدكتور والباحث محمد محفل تحدث عن تميز العمارة في إيبلا بتطورها وحملها هويّة خاصة تميز الحضارة السورية القديمة التي كشفت وجود مدرسة سورية في فنِ البناء لا علاقة لها بالمدرسة الرافدية ولا المصرية، لافتاً إلى الدور المحوري الذي لعبته المدينة في تاريخ سورية القديمة، إذ كشفت الرقم المسمارية التي عثر عليها عن تطورها في مجالات الحرف المتطورة في الحدادة، إضافة إلى تطورها في مجال علوم التخطيط.

ختم اليوم الأول للتظاهرة بمحاضرة للآثاري فجر محمد أمين متحف إدلب تحت عنوان «إيبلا خلال الأزمة» تطرّق خلالها إلى الواقع الراهن للمدينة الأثرية وما تعانيه من تعد وانتهاك وتخريب. وأشار محمد إلى أن الموقع الأثري بات مهجوراً وموحشاً اجتاحته أخطار كبيرة دمرت الكثير من معالمه جزئياً وخربت بعض سوياته الأثرية واستباحت حرمته سرقة ونهباً وتخريباً، لافتاً إلى استباحة التنظيمات الإرهابية المباني التخديمية الحديثة الواقعة شمال الموقع وجنوبه، والمرافق الخدمية داخله وسرقة محتوياتها، ولم تسلم من أفعالهم الأسقف الخشبية والعضائد المستخدمة في أعمال الترميم والتأهيل للمباني الأثرية من السرقة والنهب، كاشفاً «أن عمليات الحفر العشوائي استمرت قبل عام في الموقع والتخريب ونهب ما يمكن العثور عليه من لقى»، مشيراً إلى انحسار هذه العمليات راهناً بسبب الدور الإيجابي للمجتمع المحلي، وخاصة المثقفين في قرية تل مرديخ، والخيّرين من أبنائها، معتبراً أنه «رغم ما حل بموقع إيبلا من تخريب واستباحة نستطيع القول إن الوضع في الموقع ضمن المعقول حالياً بعد توقف أعمال الحفر العشوائي».